تمثّلات القدس
في الثقافة والمقاومة

إعداد: د. المتوكل طه
مفكر وكاتب فلسطيني

القدس؛ الكمبرادور الثقافي وآليات التطبيع ونقيضه

الحديث عن القدس هذه الأيام لا يَسَرّ ولا يطرب، عندما تزورها فإنك تشعر بما شعر به أسامة بن منقذ عندما زار القدس وهي تعاني إذلال وحكم الفرنجة. القدس الآن وباختصار ودون الخوض في تفاصيل محرجة ومخجلة، مدينة تمزّق وتخترق وتمحى وتهوّد، وتُغيّر وُتبدّل بوصة بوصة، جدارًا جدارًا، ويعمل المحتل على محاصرة أهلها، بيتًا بيتًا، شابًا شابًا، امرأة امرأة، بالضرائب والألاعيب والمؤامرات المخابراتية والتهديد بالطرد والتوقيف وعدم منح الأوراق الثبوتية وباقي أوراق المواطنة والبقاء، التي تكتسب أهمية كبرى للصمود اليومي واحتمال الحياة في القدس، ولا يكتفي المحتل بذلك، فهو يسهّل كل أنواع الجريمة والانفلات والانحلال والتفكك الأسري والأخلاقي، والمحتل يغضّ البصر عن الخلافات العائلية والقانونية وحتى الفصائلية ما دامت تصبّ في مصلحته ومصلحة بقائه، والمحتل استطاع أن يطرد أو يسهل طرد المؤسسات الفلسطينية ذات الصبغة السيادية أو الشبيهة بها، واستطاع المحتل أن يغلق أو أن يعمل على إغلاق كل المؤسسات الفلسطينية والعربية والأجنبية التي تعمل في مجال الثقافة أو الفن أو التربية أو

التعليم داخل مدينة القدس. واستطاع المحتل أن يسوّر المدينة المقدسة بعدد من الأسوار التي لم تشهدها مدينة في التاريخ من قبل، فهناك أسوار من الإسمنت، وهناك أسوار من الأسلاك الشائكة وهناك أسوار من المستوطنين، وهناك أسوار من الشوارع الالتفافية، والأهم من كل ذلك، هناك أسوار من الصياغات الدبلوماسية والتواطؤ الدولي والدعم القريب والبعيد، تسمح للمحتل أن يستفرد بالقدس وأن يسوّرها وأن يمتلكها أو يهيئ له ذلك حتى حين. إن السور الدبلوماسي الذي يسوّر القدس ويفصلها عن محيطها وبيئتها وشعبها يقابله أو يدعمه ويقويه سور من الألسن المربوطة والقلوب الخاوية ممَّن ارتضوا السكوت رغم انتسابهم للقدس دينًا ولغة. ورغم ذلك كله، ورغم أن المواطن المقدسي غير معرّف قانونيًا حتى اللحظة بما يفيد مواطنته وامتلاكه لبيته أو مدينته –فهو يحمل ثلاثة أنواع من الوثائق الثبوتية المتضاربة فيما بينها– ألا أن هذا المواطن المُحاصر والمُهدد والمُلاحق بكل شي.. هو الذي يهبّ في كل لحظة ليحمي الأقصى بصدره العاري، وهو من يهبّ لنجدة الكنيسة أو المسجد أو المقبرة أو البيت الذي يحاصره المستوطنون. المواطن المقدسي ورغم كل المؤامرات التي تحاك ضده إلا أنه يحمل على كتفيه قدَرَه الثقيل والمقدس.

تشهد القدس اليوم أقوى وأعمق هجمة استيطانية إحلالية في تاريخها الحديث، إذ يقوم المحتل فعليًا بإفراغ أحياء كاملة من القدس من مواطنيها الأصليين، في حي البستان والشيخ جراح وفي قلب المدينة القديمة، يترافق ذلك مع تسمين المستوطنات المحيطة بالقدس من جهة، مستوطنة معاليه أدوميم شمالًا وحتى جيلو جنوبًا، والمحتل يقوم الآن باستباق الزمن وفرض الواقع والوقائع قبل أيّ تسوية يتم التوصل إليها فرضًا أو طوعًا، مع الأخذ بعين الاعتبار أن أيّ تسوية سياسية ستكون ضمن موازين القوى الحالية لصالح المحتل بالتأكيد، وستكون التنازلات والتسويات على حساب الطرف الأضعف.

لا يمكنني الآن وصف مدينة القدس التي تختطف من تاريخها وهويتها، فالأنفاق وعزل الأحياء العربية وتطويقها لمنعها من النمو والتمدد، ودفع المستوطنين في كل زاوية وفي كل بيت مقدسي، عدا الكاميرات التي تراقب حتى الذباب في المدينة، والتواجد الشرطي والمخابراتي الكثيف، والوجود الدائم للرموز الإسرائيلية واليهودية في كل شارع، والحرف العبري الذي يغطي اللوحات واللافتات، وعسكرة الحياة وتسميمها بالفوبيا الأمنية التي تراها في كل زاوية، يجعل من مدينة القدس مدينة غريبة وبعيدة. أما المسجد

الأقصى فإن زيارته مخاطرة، ففي أيّ لحظة قد تفاجأ بسوائب المستوطنين المتطرفين يطوفون في أرجائه، أو تفاجأ باستنفار عناصر الشرطة الإسرائيلية وهجومهم على هدف ما، وعادة ما يكون صرة تحملها قروية فلسطينية تسللت من إحدى القرى القريبة لتصلي ركعتين في المسجد الأقصى، وقد تفاجأ بأن يوقفك شرطي إسرائيلي بمنعك من دخول بوابات المسجد التي تحولت إلى نقاط تفتيش ومراكز اعتقال.

هذه هي القدس اليوم، لا مسرح ولا مركز ثقافي ولا صالة عرض ولا مكتبة ولا حتى دكاكين عامرة ولا أسواق مزدحمة كما هي عادة القدس منذ أن كانت.

المحتل يستفرد بالقدس، حفرًا ونبشًا وبناءً وهدمًا وإضافة وحذفًا، بدأ ذلك في حارة المغاربة التي اختفت الآن، لصالح الحي اليهودي والحائط الغربي الذي يدعونه حائط المبكى والذي هو البراق، أما الحفر تحت المسجد الأقصى، فهو قصة أخرى، إذ ثبت أن ما يقام تحت المسجد الأقصى مدينة توراتية كاملة، هذا غير ما ينشر في الصحف والمجلات الدينية اليهودية المتطرفة عن استبدال الأقصى بالهيكل المزعوم. ورغم أن مئة عام من الحفر والتنقيب وبدعم من صناديق مالية ومراكز بحث متخصصة غربية تؤمن بالفكر القيامي والتدبيري، إلا أن ذلك كله لم يسفر عن دليل واحد يدعم أوهام التاريخ وتاريخ الأوهام الذي يؤمن به هؤلاء.

وأجدني أرغب في الاسترسال في الكلام عن القدس وهي تعيش أسوأ لحظات احتلالها، فالفلسطينيون، من مسلمين ومسيحيين، ممنوعون من الدخول إليها أو زيارتها أو التعلم أو التعليم أو تلقي الخدمات الصحية، حتى أولئك الذين لهم زوجات وأطفال في القدس، فهم ممنوعون أيضًا من الوصول إلى أُسَرهم، ومنذ أن أكمل المحتل بناء السور الإسمنتي حول القدس ووضع عليه بوابات ونقاط تفتيش، فقد فتّت النسيج الاجتماعي لقرى كثيرة مثل السواحرة والرام وضاحية البريد وعناتا وأبو ديس والعيسوية وبيت حنينا ومخيم شعفاط وكفر عقب وقلنديا وغيرها. إن السور والحاجز ليس مفهومًا أمنيًا إطلاقًا، إنه مفهوم اجتماعي وأمني ونفسي واقتصادي. إن تضييق المكان يعني تضييق الوعي، وإن تفتيت المكان يعني ميلاد كتل اجتماعية تختلف في تطورها وحتى في أهدافها. الحاجز والسور ونقطة التفتيش ومكعبات الإسمنت لها مدلولات أعمق مما يشيع المحتل حول دورها الأمني. المحتل يرغب في تفكيك جماعة الفلسطينيين إلى ذرات صغيرة وكتل بشرية يسهل التحكّم بها والسيطرة عليها وضبط نشاطها وتوجهها. إن نظام المعازل

والبانتوستونات هو نظام عنصري قطعًا لأنه يقوم على محاولة شيطانية في تفكيك الجماعة وانحلالها وعدم تطورها من خلال ربط كل كتلة اجتماعية أو جغرافية بالاحتلال ربطًا عضويًا. إن شكل الدولة الفلسطينية التي يرغب الإسرائيليون بالعمل على إقامتها هي دولة تتكون من ست إلى سبع محافظات تفصل بينها بوابات إلكترونية وطرق التفافية وكتل استيطانية، بحيث تتحول هذه الدولة مع الوقت إلى ست أو سبع «دول» متمايزة ومختلفة ومتناقضة. إن ما يقوله «الليكود» و«إسرائيل بيتنا» و«البيت اليهودي» وباقي الأحزاب يختلف عن هذا الطرح. إسرائيل بيمينها ويسارها لا ترى قيام دولة فلسطينية حقيقية إلى جانبها إطلاقًا. ومن هنا نفهم أسلوب إسرائيل في إدارة أزمة الاحتلال وليس إنهاء الاحتلال. إسرائيل لا ترى في الشعب الفلسطيني شعبًا متجانسًا ولا تعامله على أنه جماعة لها حقوق سياسية، وإنما تعامله على أساس أنه أفراد. ومن هنا نفهم ما تقوله دائمًا حول التسهيلات والتنازلات وتحسين مستوى حياة الفلسطينيين. إنها تتحدث عن أفراد لهم مطالب وليس عن جماعة لها حقوق. ولكن المحتل عادة ما يكون غبيًّا أو واثقًا بنفسه إلى درجة الغباء، فالحركة الوطنية الفلسطينية ذات العراقة والتاريخ والتجربة، بالإضافة إلى التغيرات العميقة التي تحدث داخل الكيان المحتل ذاته، تجعل من هذه المحاولات مجرد محاولات تؤخّر الاستقلال والحرية ولكنها لا تستطيع أن تمنع وصولها أو تحققها.

أسوق هذا الكلام كله للقول إن ما يسمى بشائعة التطبيع تبدو كالنكتة السمجة والسخيفة في خضم هذا الواقع، فهذه الشائعة وتحت أي تعريف لها إنما تعني أمرًا أقل من الخضوع والاستسلام ليس إلا.

فالتطبيع أيًّا كان تعريفه السياسي أو الثقافي إنما هو في حقيقة الأمر يكون على الوجوه التالية:

إما التكيّف أو التعايش مع المحتل بسبب الخضوع له ولمصالحه ولواقعه الذي يفرضه، أو بسبب عدم القدرة على ردّ المحتل أو كسره أو طرده أو فضحه أو مقاومته، ومن هنا يكون التطبيع أسوأ حتى من الاستسلام، لأن في التطبيع نوعًا من النشاط باتجاه المحتل، حيث يشعر هذا أن المطبع يقوم بدور ما من تحسين أو تجميل المحتل. إن التكيف أو التعايش مع المحتل يفترض في المطبع أيضًا أن يغير أو يعدل من رؤيته للمحتل أو أن يبرر له أو يفسر مواقفه. إن التكيف أو التعايش مع المحتل يعني عمليًا العيش مع الحق المنقوص والإرادة المنقوصة، ويترجم هذا المضمار من أنواع التطبيع في الاتفاقات

السياسية العرجاء والمشوّهة أو التي تُنقِص من الحقوق ومن الثوابت، كما يترجم هذا النوع من التطبيع من خلال المواقف الدولية والإقليمية، حيث نرى المطبعين لا يتخذون المواقف التي يجب أن تنسجم مع مصالح الشعوب، وأسوأ أنواع هذا التطبيع هو ما يحاك في الظلام من اتفاقات وتكتلات محاور سرية، يكون فيها المحتل مركز هذا الاتفاق وهو المستفيد الوحيد منه. إن التكيف والتعايش مع الاحتلال هو شكل صاعق من أشكال الأزمة ومن أشكال الهزيمة أيضًا. وفي العودة إلى الحروب الصليبية، فإن فكرة مصانعة الفرنجة التي استمرت عدة عقود أدت فيما أدت إليه إلى أن تتفتت الدولة الإسلامية إلى دويلات صغيرة بائسة تتقاتل فيما بينها، إلى درجة أن الإفرنجي كان في بعض الأحيان يلعب دورًا في توحيدها، وهو أمر يتكرر على أيامنا، وهو أمر وإن كان يبعث في النفوس المرارة إلا أنه أيضًا يبعث في النفوس الأمل، ذلك أن التعايش والتكيف مع العدو عادة ما ينكسر وينتهي، لأن المحتل لا يقبل أن يتعايش مع أحد إطلاقًا. فالمحتل الإسرائيلي بالذات له من العقد النفسية المؤسسة على عقدة الاضطهاد وعقدة الضحية وعقدة التميز والعرق الخاص، ما يحوّله إلى كيان لا يمكن أن يرى إلا نفسه، وأن يعبد نفسه، وهو لهذه الأسباب لا يستطيع أن يتعايش أو يتكيف مع أي طرف مهما خضع هذا الطرف أو أعطى أو أظهر إيمانه وإخلاصه. إن عُقد المحتل النفسية تجعله يقبل قتل الآخرين واستغلالهم والنظر إليهم باحتقار شديد. إن هناك أطرافًا في المنطقة على علاقة ما بالمحتل منذ أكثر من ستين عامًا وثلاثين عامًا وعشرة أعوام، ولكن المحتل يهدد هذه الأطراف ويبتزها ويستغلها ويخوّنها أمام جماهيرها، فمرة يهددها بالوطن البديل ومرة يخونها بمنعها من الوصول إلى الكونغرس، ومرة يخونها بالأقليات الدينية والإثنية، ومرة يهددها بالأمن الاقتصادي، ومرة يهددها بالجواسيس والتخريب الصناعي، ومرة يهددها بخلخلة الأمن الاجتماعي والصحي، والمحتل في ذلك يعتقد أن على الطرف العربي أن يقدم حسن النية وأن تكون العلاقة كلها على حسابه. جزء من هذه النظرة نراه فيما قيل عن الشرق الأوسط الجديد الذي تكون فيه إسرائيل صاحبة الخبرة والتكنولوجيا والتخطيط ويكون فيه العرب أصحاب المال والأيدي العاملة والأسواق، وهذه فكرة تطبيعية سمجة بامتياز، فإسرائيل فيها تعرض خدماتها دون أن تتخلى عن احتلالها أو عن رؤيتها الكلية للمنطقة وشعوبها، وهي تعرض خدماتها من أجل أن تكون جزءًا من المنطقة بقوة المال وقوة السلاح، ومن الغريب أن من يعرض السلام الاقتصادي في التسعينيات رجل يدعي أنه من اليسار الصهيوني، وأن مَنْ يعرض ذات السلام في العام 2009 رجل يدعي

أنه من اليمين المتطرف. لنلاحظ أن لا فرق إطلاقًا في التيار العام الصهيوني، فهو تيار لا يرى في المنطقة وشعوبها سوى أدوات لبلوغ أهدافها ليس إلا.

وإذا كان التكيف والتعايش مع المحتل سببه قوة المحتل ومَنْ يدعمه، فإن الاستسلام لهذه الفكرة تأتي من النخب أو تروّج لها النخب أو مبادرات الشعوب وقواها وقاعها المجهول، فإن مسألة هذا التكيف وهذا التعايش لا تجد صدى ولا ترجمة أبدًا. والشارع العربي خير مثال على ذلك، فهذا الشارع بفلاحيه وعماله ومثقفيه ونقاباته قال كلمته وانتهى الأمر. ومن عجائب الشعوب أنها قادرة على أن تحتفظ بصورتها عن نفسها دائمًا وأن تدافع عن تلك الصورة دائمًا، ومن عجب أيضًا أن صورة الشعوب عن نفسها عادة ما تكون ساطعة ومثالية، ولهذا فإن الشعوب لا تذوب، حتى تلك الأقليات والجماعات الإثنية الصغيرة التي بقيت رغم انهيار الحضارات الكبرى. هناك ما لا يزول، هناك ما يبقى رغم كل شيء. إن جماعة اليهود، أو جماعات اليهود إن شئت، هي مثال ضمن أمثلة عديدة ومختلفة على قوة صورة الجماعة عن ذاتها، ولهذا فإن التطبيع، بمعنى التعايش والتكيف قد يستمر لفترة ولكنه بالتأكيد سينتهي، لأنه ضد رؤيتنا لأنفسنا وحقوقنا ومشروعنا من جهة، ولأنه ضد البنية النفسية للمحتل ذاته، الذي لا يطيق أحدًا ولا يتعايش مع أحد. المحتل، أكان في فلسطين أو في غيرها، ورغم كل شعاراته ودعاواه، فهو يعمل من أجل أمرين اثنين لا ثالث لهما:

مصالحه أولًا، ورغبته في تقليل خسائر هذا الاحتلال ثانيًا، وما عدا ذلك فكلها أكاذيب تصلح للفضائيات ليس إلا.

وجه آخر من وجوه التطبيع يتمثل في تلك المنظومات الفكرية والاجتماعية التي تحملها وتروّج لها عادة طواقم الكمبردور الثقافي الممولين جيدًا، وفي الحقيقة فليس هناك مسافات أو فجوات بين هذا الكمبردور الثقافي وبين الرؤية السياسية الكليّة للمُموّل، ولكن هذا الكمبردور الذي سرعان ما يمتلك أو يؤسس منظمة غير حكومية يكون لها أذرع إعلامية وتأثيرات سياسية ولمعان صحفي وإعلامي، سرعان ما يبدأ في إطلاق تلك المنظومات الفكرية والاجتماعية، فمدينة القدس مدينة تعايش، وهي مدينة لله فقط، وهي بدلًا من أن تكون محتلة فهي تمتلئ بالنساء المعنفات أو متعاطي المخدرات، تمامًا، كتلك الحملة التي وزعت الكتب على حواجز الاحتلال في الضفة، مع احترامنا للنوايا طبعًا.

هذا الكمبردور الثقافي المُمَوَّل عادةً ما يستند إلى القول إن استدراج الإنساني في العدو هو أمر صحيح، وإن محاولة الالتقاء بالمحتل في منتصف الطريق هو الحل، وإن التشارك أو الجدل أو الحوار سيؤدي إلى نتائج مرجوّة. إنها الأفكار ذاتها التي طرحت في الهند وجنوب إفريقيا وفي أنغولا وفي الجزائر. المشكلة أن هذه الأفكار محوّلة من الغرب ذاته، مع احترامنا وتقديرنا للنوايا والرؤى الحسنة. المشكلة هنا أن هذه الأفكار تأتي عن ضعف وعن قلة ثقة بالشعوب وقدرتها على الفعل والإبداع. أكثر من ذلك، هذا الكمبردور الثقافي -ومهما حاولنا أن نجمّله- فإنه يعمل في اتجاه آخر خطير، إنه يقوم بمهمة التثبيط والتيئيس والتفكيك والخلخلة الفكرية والاجتماعية وحتى السياسية، ولا نبالغ في ذلك أبدًا، ومع أخذنا بعين الاعتبار أن سيادة الدول قد تم انتقاصها والمس بها من خلال ميلاد هيئات دولية عالية وقوانين عالمية تفرض على الدول الإيمان بها والعمل بها، مثل حقوق الإنسان والبيئة والجندر وما إلى ذلك، فإن الكمبردور الثقافي والسياسي يلعب دورًا في عملية إنقاص سيادة الدول بذات الطريقة. وفيما يخص موضوعنا وهو القدس، فإن كثيرًا من الهيئات والمؤسسات لا يمكن لها العمل دون أن تنسق مع مؤسسة أو هيئة شبيهة لها في الجانب الإسرائيلي، وهي لا تستطيع أن تعمل دون أن تثبت أن لا علاقة لها بدعم مَنْ تسمّيهم إرهابيين أو الإيمان بأطروحاتهم.

التطبيع هنا يتخذ اسم مؤسسة قد تُعنى بأمر بعيد عن الثقافة أو الفن، ولكنها جزء من تلك المنظومة الخطيرة الهادفة إلى أن تكون الرقيب والعين والأداة القادرة على أن تمسّ أو أن تصيب، ولا نقول هنا شيئًا يفهم منه أننا ضد مؤسسات المجتمع المدني، على الإطلاق من ذلك، إن مؤسسات المجتمع المدني هي مؤسسات تقوم على المبادرة والتمويل الذاتي، والأهم، تقوم على الرغبة الحقيقية في خدمة المجتمع إلى جوار الدولة، لا أن تكون مماحكة للدولة أو رديفًا لها أو بديلًا لها في اللحظة المناسبة كما يخطط المحتل عادة.

إن مثل هذا الكمبردور الثقافي هو المسؤول عن ترويج أفكار ونشر برامج اللقاءات على المستويات المتعددة التي تبدأ من معسكرات الشباب وتنتهي بعقد المؤتمرات الكبيرة التي يشارك فيها كبار المثقفين والسياسيين، وهو المسؤول عن إنتاج الأعمال الفنية والسينمائية التي يُقَدَّم فيها الآخر المحتل مقبولًا وإنسانيًا، وهو المسؤول عن إنتاج الخطاب الإعلامي الذي يتحوّل فيه الآخر المحتل إلى وجهة نظر أخرى ليس إلا، هذا الكمبردور المموَّل يكتشف فجأة أن المحتل أو الآخر على إطلاقه مجرد رأي معاكس لا غير.. وبالتالي نتعود

على إعلام يقتل المقاومة بسبب الموضوعية والمهنية.

وهذا الكمبردور قادر على الهجوم وقادر على الدفاع وقادر على التجنيد وقادر على الاصطفاف وقادر على التلميع وقادر على أن يشكل رافعة لمن يقف معه، وقادر على أن يعتّم على مَنْ لا يقف معه أو يؤيده، وهو مدعوم من الآخر المحتل ومن يقف معه، فإذا به محمي جيدًا، حتى إن الدول فضلًا عن الشعوب لا تستطيع الاقتراب منه. في فلسطين، وفي ذروة الانتفاضة الأخيرة كانت هناك دعوات من هذا الكمبردور تدعو حقًا إلى الجنون، مثل التوقيع على بيانات ضد بعض أعمال المقاومة أو الخروج في مظاهرات تضامنًا مع ضحايا تفجيرات حصلت في هذه المدينة الأوروبية أو تلك. الجنون في هذه الدعوات أن المدن الفلسطينية نفسها محاصرة ومهددة وتعيش ما يشبه المجاعة. إن هذه الرفعة الأخلاقية المدعاة لا تفسير لها سوى أن هذا الكمبردور عنده من الادّعاء والكذب والتشويه ما يجعله يطلب من شعبه المحاصر أن يتضامن مع الشعب البريطاني في محنة التفجيرات التي ضربت لندن. مع العلم أننا ضد تفجيرات لندن وضد كل أشكال الإرهاب والعنف والكراهية.

يلقى هذا الكمبردور الدعم الكافي من النخب السياسية المتورطة فعليًا في الاتفاقات المنقوصة أو المشبوهة، وتتحول العلاقة بين الطرفين إلى علاقة خاصة إلى درجة أن هذا الكمبردور عادة ما يتلقى مكافآت مختلفة مثل الجوائز والتوزير والتمثيل واللمعان الصحفي والإعلامي. وتتحول البلد برمتها إلى أن يقودها مثل هؤلاء، أو أن يكون هؤلاء هم البلد أيضًا. إن نجاح الآخر أو المحتل أو كليهما بتكوين نخبة مثل هذه في أي مجتمع يعني تحقق حلم هذا البلد. ولم يكن غريبًا أبدًا أن تحتوي الخطة التي وضعتها وزارة الخارجية الأميركية في عهد بوش الابن على بند صريح ينصّ على تسمين النخبة المثقفة في البلدان العربية المؤمنة بذات الأفكار والتوجهات، وليس غريبًا على الخارجية الأميركية العمل في ميدان الثقافة والفن والأدب، فالفضائح المدوّية في الخمسينيات والستينيات وتورّط أدباء كبار بها ما تزال في البال.

الكمبردور الثقافي هو الذي يقف وراء فضائيات تعدّل الصور النمطية وتغيّرها، والكمبردور الثقافي يقف وراء صحف ومجلات وأفلام، ووراء مؤسسات ومواقف واتجاهات، في فلسطين، وفي القدس، جزء من هذا، أكثر أو أقل. القدس التي أُعلن عنها أنها عاصمة دائمة للثقافة العربية.. لا يستطيع أحد أن يصلها، ولا يستطيع أحد أن يقيم

نشاطًا واحدًا فيها، إنما تطرح السؤال الكبير الذي لا يريد أحد أن يطرحه، فهل نتكيف أو نتعايش مع القدس محتلة، ومن ثم نستغل هذا الوضع كما يستغله المحتل؟! لا أعرف الإجابة.. حتى الآن على الأقلّ؟!

كل ما أعرفه الآن أن لا أحد من الذين يزورون رام الله لا يستطيع زيارة القدس دون تصريح ودون أختام المحتل، أنا ضد التكيف وأنا ضد التعايش مع محتل، أنا لا أطيق أن أطرب لأغنية قاتلي، ولا يعنيني أن صالونه جميل ومرتب، ولا يعنيني أنه دقيق وعلمي وحريص وإداري ناجح، إن بيوتنا مهشمة كابية وحدائقنا مهملة، ولكن هذه البيوت هي التي نريد ولا نريد غيرها، ولا نسمح لأحد أن يمسّها. ولا أريد أن أحتفل بصالون عدوي أو قاتلي أو محتلي ولا أريد أن أشرب الشاي في حديقته.. التي هي لأبي أصلًا!! لا أريد على الإطلاق. أليس في الأمر بعض فانتازيا. العرب يحتفلون بثقافتهم في مدينة محتلة لا يمتلكون الوصول إليها.. أليس من الأجدر العمل من أجل استعادتها أولًا.. ولكن هذا كلام كبير، أليس من الأجدر وضع سياسة اعتراضية تمنع محتلها من طرد مواطنيها؟! ليس من الصدفة أن تعمّق إسرائيل هجومها العنصري على مدينة القدس، في الوقت الذي نتغنّى فيه بالقدس!! إن أطرافًا عربية معنية تستطيع أن توقف المحتل عند حدّه لو وظّفت إمكانياتها.. لكنّها لم تتخذ موقفًا حاسمًا في وجه ترامب عندما أعلن عن نقل سفارة أميركا إلى القدس!! بالله عليكم، ألا يعود الكلام كله الآن بلا معنى حول الثقافة والحديث عن مدينة يأْسِرلونها كل يوم؟؟

إن خطورة التكيف أن نحتمل جميعًا فكرة ضياع المدن، سبته ومليلة والاسكندرون والقدس وجزر أخرى هنا وهناك. العادة والتعوّد عدو يجب قتله، التطبيع هو جزء من العادة والتعوّد.

القدس والمقاومة في مواجهة الأزمة

ما يميز الخطاب العربي الرسمي أنه خطاب ينحو إلى التكيّف والتعايش مع الهزائم والاحتلالات المختلفة، إنه خطاب من السعة والمرونة والاحتيال بحيث يستطيع أن يقلب الحقائق ويزوّر الوقائع، ما يدفع إلى القول إن الخطاب المتكيف عادة هو خطاب كاذب ومخادع، لا يقرأ الواقع من جهة ولا يفسره ولا يحلله من جهة أخرى، لذا فإن الخطاب المتكيف عادة ما يكون تلفيقيًا وتوفيقيًا بطريقة مثيرة للشفقة أو الضحك أو البكاء أو كل هذه الأمور مجتمعة. يظهر التلفيق في هذا الخطاب من خلال تقديم نماذج

متعددة المرجعيات ومتناقضة الأيديولوجيات، إلى درجة أن هذا الخطاب يحتمل كل شيء في الوقت ذاته، ومن العجيب أن مثل هذه النماذج تقدم إلى الجماهير دون إحساس بالذنب أو الخطأ أو تبكيت الضمير، ومن العجب أيضًا أن يقوم على تقديمها رجل الفكر والدين والإعلام ورجل السياسة، لتشكيل فضاء سياسي ثقافي ناظم يكتسب شرعية بفعل قوة الروافع والمضخات الرسمية، ومن يتطوع معها إغواءً وإغراءً ورغبة منها في الاندماج والكسب. وإذا كان التلفيق صفة الخطاب فإنه ينسحب على كل أمر آخر، فالتعليم يتراوح بين التلقين والتقليد وادعاء الإبداع والبحث، وتخطيط المدينة يضطرب ما بين العشوائية والتخطيط، وحتى العلاقة مع الجماهير، حيث تغيب الرؤية النهائية للتعامل مع الجمهور، فالديمقراطية ادعاء برّاق يُستخدم حسب مقاييس ومعايير تكرس القمع، أو يعاد إنتاجها بطريقة غاية في الخداع والاحتيال، بحيث تتحول الديموقراطية -كمفهوم غربي له عراقة وتقاليد- إلى سلوك سياسي مخادع يتم من خلاله تثبيت مراكز القوى إياها، وهكذا يتحول مفهوم الديموقراطية إلى سيف يذبح حامله. الديموقراطية بالذات هي الوصفة الناجعة من أجل التفتيت والتفكيك بدلًا من أن تكون مفهومًا وأداة للاستقرار السياسي والاجتماعي، ذلك أن تلفيق المفهوم يؤدي إلى تلفيق التطبيق وبالتالي تلفيق النتائج.

ويظهر التوثيق في خطابنا الرسمي عندما يساوي بين الأخطاء، ويمارس عملية إيهام حقيقية بحيث تنتفي الفروق بين الأفعال وبين الرجال وبين الأفكار، وعندما تتم التسويات على قاعدة عمومية غامضة، وحين تغيب المحاسبة والمكاشفة، وحين تحل المشكلات بطريقة عشائرية يستوي فيها الخطأ والصواب إلى درجة أن يتساوى الدم بفنجان القهوة، وهو أمر يتكرر في السياسة، حيث تتحول الأوطان إلى عقارات وليست رمز كرامة وعزّة. الخطاب التوفيقي هو خطاب مضحك وبائس في الوقت ذاته، لأنه لا يبحث عن الإقناع بقدر رغبته في السلامة والتسويات التي لا تصح، هذا الخطاب لا يبحث عن الشرعية بقدر بحثه عن الإجماع المصطنع مهما كلّف الثمن.

إن الخطاب المتعايش والمتكيف مع الهزيمة مستعينًا في ذلك بالتوفيق والتلفيق، هو خطاب أزمة بامتياز، هي أزمة التعامل مع الواقع، أزمة السؤال والتحدي، أزمة الهوية، أزمة الشرعية، وأزمة التنمية. هو خطاب أزمة لأنه خطاب تعايش مع الهزيمة، وهو خطاب تعايش مع الهزيمة لأنه خطاب أزمة، ولا يمكن تجاوز كل ذلك إلا بتجاوز

الأزمة عن طريق رفض الهزيمة. إن صنع النصر والاستعداد له والتهيؤ لأسبابه وإنضاج ظروفه وشروطه هي عملية طويلة ومضنية ومجهدة، ولأنها كذلك، فإنها كفيلة بأن تفرز الخبيث من الطيب، الحقيقي من الزائف، عملية النصر بحد ذاتها عملية تُنظِّف وتطهر وترمم، عملية النصر عملية لا تلفيقية ولا توفيقية، النصر انحياز حقيقي باتجاه مكان القوة الأصلية ومصادر الطاقة التي عادة ما تغيب في خطاب الأزمة أو تُشَوّه. وخطاب النصر واضح وبسيط، حتى شعاراته بسيطة وواضحة ومتواضعة، لا تقفز عن الواقع ولكنها تحلم بتغييره، ولا تزوّر الواقع ولكنها تطلب الانقلاب عليه. حتى لغة النصر، فهي لغة دقيقة لأنها تعرف ثقل الأثمان التي دفعت من أجل النصر، وهي لغة متواضعة لأنها تعرف معنى الوحدة وصعوبة العمل الذي تم إنجازه. وعلى عكس لغة التلفيق والتوفيق، التي فيها من الادّعاء ما فيها، فإن لغة النصر مختصرة وتذهب مباشرة إلى مقاصدها وتسمي الأشياء بأسمائها.

ونقول هذا الكلام كله، من أجل أن نقول إن خطابنا الرسمي الذي يتعايش ويتكيف مع الهزيمة، يستبعد كليًا خيار تحرير القدس، أليس هذا غريبًا؟! أليس عدم الكلام عن التحرير تعايشًا مع الهزيمة وتكيّفًا معها وقبولًا لها؟!. عندما نتحدث بلغة لا نؤمن بها ولا نصدقها، تتحول هذه اللغة إلى خيوط مرنة ولكنها غليظة وطويلة، حتى تكفي لتأليف حبكات ينقصها الصدق والصراحة والجرأة. وعندما لا نتحدث عن تحرير القدس التي تؤلّف جوهر إيماننا فإننا نقوم بخيانة ما.. أو ما له طعم الخيانة، وعندما نقوم بتجميل الهزيمة أو التعايش معها، فإننا نخون حتى لغتنا. يجب الاعتراف بأننا مهزومون، وهو اعتراف لا يدعو إلى جلد الذات بقدر استنهاضها، ولا يدعو إلى الإحباط بقدر الدعوة إلى فتح العينين إلى آخرهما لقراءة الواقع كما هو لا كما نريد أو كما نحلم. إن الاعتراف بالهزيمة خطوة أولى من خطوات الاعتراف بالواقع، فأوضاعنا ليست بخير، ومجتمعاتنا ليست بخير، وحكوماتنا ليست بخير، وثرواتنا ليست بخير لأنها تذهب لقاتلنا. المشكلة هنا أن هذا الكلام يكاد يكون مكرورًا ومبتذلًا، ويعرفه القاصي والداني، كلنا يعرف أن فلسطين محتلّة، وأن أراضي عربية كثيرة أخرى تعاني احتلالًا بشعًا واقتتالًا يستهدف دولنا ومنجزاتها ووحدتها لصالح دولة الاحتلال.. ويكاد بعض هذه الاحتلالات والاقتتالات أن يتحول إلى واقع لا يمكن حتى نقاشه أو رؤية نهايته، وهذا ما يؤلم على المستوى الشخصي والعام إلى أبعد الحدود. القدس مثلًا تهوّد بوتيرة سريعة إلى درجة قد تتحول فيها الأوضاع إلى الحال الذي تعيشه سبته أو الاسكندرون، لا نريد فراديس

مفقودة أخرى، ولا نريد أندلسَ جديدة، لا نريد أن تكون الأُمّة التي تتعود الصفعات، لأن العادة والتعود تطبيع من نوع آخر. لا نريد أن نكون الأمة التي ضحكت من جهلها الأمم. أقول ذلك بدواعي الفخر الديني والعروبي، وأقول ذلك باعتبار أن لنا رسالة حملناها ونشرناها وكانت خيرًا على كل البشرية. وبعيدًا عن استعراض تاريخي لعالمنا العربي منذ بدايات القرن الماضي وحتى يومنا، فإن أسباب هزائمنا المختلفة في الحرب والفكر والتنمية وبناء مجتمعات صحية، لم تتجاوز سببين، إن عدونا قوي ومستعد وشره وصاحب خبرة طويلة، وإننا لم نكن على مستوى المواجهة، لم تكن هزيمتنا هزيمة طبقة أو فكر أو شخص أو جهة أو حزب أو فصيل، كانت هزيمة أُمّة كاملة.. بالمناسبة، فإن أيامنا هذه، تشهد احتلالات وحصارات وهجومات لعدد من العواصم العربية، ولا نتحدث هنا عن القدس فقط، وبالمناسبة أيضًا، فإن عالمنا العربي في أيامنا هذه يشهد أسوأ فترات هزائمه، فالهزيمة وصلت إلى أن تسلب حتى إرادة الرغبة في الانفكاك من هذا الوضع، وأقول أسوأ فترات هزائمه لأن بعضنا صار يحارب بعضنا الآخر من أجل عدونا جميعًا، أي إننا وصلنا إلى وضع صرنا نموّل فيه حروب عدونا. وهذا من العجب العجاب.

إن تجاوز خطاب الأزمة لا بد له من مثال أو نموذج حي يستطيع ملء الفراغات وتقديم محتوى نظري وعملي للفكرة. كل الأفكار عظيمة دون تطبيق، وكل الأفكار قابلة للنقد عند تطبيقها، وبسبب الأزمة وما تجر من خيبات وعثرات.. فقد كانت لنا ثلاثة نماذج قدّم كلّ منها محاولة ما لتجاوز الأزمة. النموذج الأول كان جمال عبد الناصر، الذي تهيّأت له من الظروف ما لم يتهيأ لأي قائد عربي في العصر الحديث، إذ تحول عبد الناصر إلى رمز أسطوري، وعلقت عليه الآمال والأحلام، ومستفيدًا من الظروف الدولية والمزاج الشعبي في العالم الثالث على الأقل، فإن عبد الناصر حاول أن يكون الحاضنة لثورات العالم العربي وما جاوره وصولًا إلى كيانية موحّدة بشكل ما. وبغض النظر عن جدلنا مع الناصرية وأخطائها وإنجازاتها، إلا أن هذه التجربة تم ضربها ومن ثم حصارها وأخيرًا تجفيفها. نحن هنا لا نريد تقييم التجارب والنماذج التي نقدمها، لأن هدفنا هو مصير تلك النماذج والمحاولات. النموذج الثاني كان صدام حسين، الذي أراد أن يصنع تنمية بالحديد والنار، وأراد أن يقدم تجسيدًا حيًا لنظرية العادل المستبد، والذي أراد أن يتقدم إلى الجمهور كأنه صلاح الدين وبسمارك في آنٍ معًا، ولكن هذه التجربة أو هذا النموذج تم استخدامه وحصاره وضربه ومن ثم القضاء عليه، وهو يتحمّل جزءًا

كبيرًا من إخفاقه بسبب أخطائه. النموذج الثالث هو ياسر عرفات، الذي استطاع أن يؤسس لثورة اكتسحت العالم العربي في السبعينيات، ياسر عرفات الذي أراد أن يكون رمز الثوار ونهضة الشعوب، والذي أراد أن يكون ضمير العالم بعذابات شعبه، لم يحتمله الغرب أيضًا رغم كل شيء، فحاصره ومن ثم قتله. هذه نماذج ثلاثة تم ضربها بالقوة من قبل الغرب أو أدواته. هذا يعني أن هذه النماذج الثلاثة وبغض النظر عن حوارنا معها أو جدلنا حولها إلا أنها نماذج أرادت أن تتجاوز واقعها وسقوفها وشروطها. هل كانت مغامرة أكثر من اللازم؟ هل كانت حالمة أكثر من اللازم؟! هل كانت مخدوعة أكثر من اللازم؟! مهما كانت الإجابة، إلا أن الغرب لم يحتمل هذه النماذج حتى لو هادنت أو دخلت تسويات أو حتى تواطأت على نحو ما.

وبالاستقراء ليس إلا، فإننا نتوقع أن يكون النموذج الرابع مختلفًا عن حديدية صدام، وتوفيقية عبد الناصر، ومرونة عرفات، ونتوقع أن يواجه هذا النموذج صعوبات أكثر، لأن الغرب سيكون أكثر تنبّهًا ويقظة، وسيواجه هذا النموذج منظمات غير حكومية لا تخضع للدولة، وخطاب تطبيع يقبل الهزيمة ويستغلها، وحكومات تخون شعوبها، واحتلالات مباشرة كثيرة، أكثر من الحالية.

نموذجنا الرابع لن يتعايش مع الهزيمة لأن العيش مع الهزيمة موت محقق ومخزٍ، ولأن التكيف الذي يسمى تطبيعًا هو أكثر رداءة من الاستسلام، لأن الاستسلام لا يفترض القبول بالمحتل، أما التطبيع أو التكيف فهو القبول بالمحتل وجودًا ورواية ومصالح وأوهامًا.

نموذجنا الرابع القادم سيرفض لغة الغموض والمرونة والفصاحة، لأنه سيستعمل لغة بسيطة وواضحة وضوح الشمس، يقول فيها إن الاحتلال يجب أن ينتهي وأن التعايش معه أو التكيف له، إنما هو إطالة لعمره ومشاركة في إبقائه.

قد تطول المدة حتى يأتي هذا النموذج، لأن الغرب لم يعد يكتفي بإدارة الأمور من وراء البحار، الغرب صار يأتي إلى هنا، ويتواجد بين ظهرانينا، ولم يعد يطلب وكلاء سرّيين، بل صار من الوقاحة بحيث يطلب وكلاء علنيين يقبضون أجرتهم أمام كل الناس وأمام عدسات الكاميرا. لهذا قد تطول المدة التي يتخلق فيها النموذج الرابع المختلف.

ونقول تطبيعًا، هذا اصطلاح غير دقيق للقبول بالاستسلام، التطبيع هو التكيف مع

الاحتلال ومع مصالح الاحتلال ومع حلم الاحتلال المتعدد والمختلف بتسميات كثيرة. عندما نقول تطبيع، فإننا عمليًا نقول الرضا والخضوع والحياة تحت سقف القوي المحتل.

التطبيع هو مطلب القوي وليس مطلب الضعيف. ولهذا عادة ما يحشر الضعيف في زاوية الدفاع عن النفس وشرح الدوافع والأسباب، وبهذا يتحول الضعيف إلى ضحية لا يصدقها أحد ولا يحترمها أحد. خطاب الضحية الضعيفة خطاب أزمة حقيقية فهو لا يستطيع أن يقنع حتى نفسه، ولهذا كان التطبيع مطلب القوي لأن هذا المطلب يتضمن ضمن أشياء أخرى قبول شرط القوي ومطالبه. والتطبيع هنا قبول رواية الآخر كما قيل، فإن رواية الآخر عن نفسه أرفع من أن تكون مطلب القوي هنا للضعيف، بل، وببساطة، فإن التطبيع المطلوب هو عدم الثورة وعدم الاحتجاج والقبول بالتحول إلى مجرد كائن حي، كل فضيلته أنه يستهلك الطعام ويخرجه.

خطاب الأزمة يقبل التطبيع ويرفضه، ذلك أن خطاب الأزمة يتجاور فيه كل شيء مع كل شيء آخر، وهذا من أشد الأمراض وأسوأها. والمحتل الذي يتابع ويدرس ويبحث، يعرف أننا في لحظات سوء حقيقي، ولهذا، فقد بلغ من الوقاحة والصلف والغطرسة أن يفرض معادلة مذلّة تقول التطبيع مقابل التجميد. إلى هنا نصل، أن يقبض المحتل الثمن مقدمًا من أجل أن يعد بشيء قد لا يحصل لأي سبب. التطبيع بمعنى أسوأ من الاستسلام، من أجل أن يتوقف عن عمل غير قانوني وغير شرعي. إلى هنا يصل بنا خطاب الأزمة. وإلى هنا يصل بنا غياب النماذج.

خطاب القدس وتأبيد المعنى

هل استطاع العربُ تحويلَ أكبر مَظْلمَة تاريخية، وأعظم كارثة حلّت بالشعب الفلسطيني، إلى ذُخْرٍ نفسي لا ينتهي، ومُلك أخلاقي يدينون به العالم كله؟!

وَهل حوّلنا كارثة الطرد والإبعاد إلى حادثٍ كوني يُؤَرَّخ به لبداية جديدة؟! أم أن نكبتنا كانت ذروة حملة غربية استعمارية جديدة بدأت في بداية القرن التاسع عشر، ولم تنته حتى هذه اللحظات؟! وبكلمات أشدّ وضوحًا وأكثر إيلامًا، ألم تكن النكبة ومن ثم سقوط القدس والنكسة ذروة انتصار الغرب وفكره وآلته وجنده علينا نحن العرب والمسلمين؟!

هذه الحملة الجديدة التي استفادت من كل الحملات السابقة، لم تستعمل الحديد فقط،

إنما استعملت المنهج الفكري والأدبي أيضًا، من أجل إقناعنا بأنّ تاريخنا مجرد حروب عشائر، وأنّ حضارتنا مجرد رحلة أخروية، وأنّ مساهمتنا في التاريخ البشري ليست إلا مساهمة المترجمين والنقلة. حملة أرادت وما زالت تريد أن تقنعنا بتفاهة تاريخنا وهامشيته وعدم حضوره، وهي حملة ما زالت تريد تلقيننا، ليس المنهج فقط، وإنما استخلاصاته أيضًا.

وتحت هذا المدخل، نعيد السؤال: هل استطعنا الاحتفال والاحتفاء بالنكبة على مستوى الخطاب الثقافي؟، وهل نقلنا هذه الكارثة من تاريخيتها إلى وجدانيتها، ومن محليّتها إلى عالميتها، أو من ظروفها السياسية إلى أبعادها الكونية؟! هل عمّمناها على الوعي لتتحوّل إلى نُدبة أخلاقية في جبين الضمير الإنساني الصامت؟! وأخيرًا هل اعترف العالم بذلك؟! أم أنّ العَالَمَ لا يعترف للمهزوم حتى بممتلكاته الروحية والوجدانية؟! وهل الضعيف لا يملك حتى إقناع نفسه بحزنه ودموعه؟!

إنّ خطابنا الثقافي العربي والإسلامي مدعوّ إلى تأبيد هذه الكارثة، لأنّ طرد الشعب الفلسطيني من أرضه واحتلال بيت مقدسه كان وما يزال يعني موت تاريخ وبداية تاريخ آخر. وفي كل مرّة كانت تسقط فيها القدسُ بيد غازٍ أو مغامر أو مجنون، يتغيّر التاريخ ويتغير مسار الحضارة، إذًا، فهذه كارثة سرمدية! وإن ذهاب خطابنا الثقافي إلى مناطق العتمة والعبث والتغريب والتطبيع.. معناه طمس الحادث الأهم والكارثة الأعظم. وإذا كان خطابنا الثقافي اليوم يفتعل الحروب ويختلق الاصطفافات، ويؤلّف أوهامًا أو حقائق ليبرالية وأصولية، أو دعوات مجتمعية متعددة ومتضاربة، فإن سبب ذلك كله هو ضياع القدس، الذي أتى معه بكل موبقات الحكم والحكّام، وبكل تشوّهات المجتمع وبنيته الفوقية.

الهزيمة لا تأتي دفعة واحدة، إنها تتراكم حتى تفيض بأبغض وأسوأ النتائج. والنصرُ تطهير وتطهّر. عملية النصر هي الأتون الذي يذيب ما ترهّل وما خبث وما زاد عن الحاجة.

وإن خطابنا الثقافي العربي مدعوٌّ اليوم إلى تحديد أولوياته وتحديد أعدائه، فالعدو ليس الخصم الداخلي أو المختلف مهما بلغت درجة الاختلاف معه، وهو بالتأكيد ليس مَن لم نتفق وإياه على مسألة فقهية هنا أو تفصيل هناك، وليس هو مَن لم يشاطرنا رؤيتنا الفكرية. والصديق ليس هو من يلوّح لنا بالجنّة على الأرض، وليس هو من يريد إقناعنا

بحريّات ضيقة تقوم على الطائفة أو العِرق، وليس هو أيضًا مَن يموّل مشاريع تخدمه أصلًا وتدمّرنا بالتدريج الممل.

إن عدونا واضح وصديقنا كذلك. ولكن من قال إن عملية تحديد الأعداء والأصدقاء سهلة في ظل هزيمة تغطّينا جميعًا؟.

إن خطابنا الثقافي اليوم، وارتباط معظمه بالمؤسسة الرسمية، يجعل منه ظِلًا باهتًا غير أصيل أو مقنع، ولهذا يدخل في معارك متوهّمة، ويساجل على أراضٍ بعيدة وتختلط عليه وجوه الأعداء والأصدقاء.

إن هذا الخطاب الذي تقع عليه مسؤولية التنمية والتحرر والتحرير، والذي لا يستطيع الفكاك من ازدواجية دوره الاجتماعي ودوره التحرري، يجد نفسه، كلما تقدم الزمن، يبتعد أكثر فأكثر عن الانشغال بالقضية المركزية الأم، بسبب هزائم النخب السياسية والاقتصادية، وانجرارها وراء مخططات أكبر منها، أو انسجامها مع الاشتراطات المريبة.

مرّة أخرى تواجهنا الهزيمة التي تدعونا إلى الانغماس في العبث واللاجدوى، أو التهالك على حلول فنية وثقافية أسهل كالنصوص التي تصطدم بالحائط. ولعل نظرة واحدة على ما يُنشر أو يُبث سيرينا حجم الفجيعة من جهة، والهزيمة من جهة أخرى.

إن نكبة فلسطين ونكستها وضياع قدسها، لم تقع على كاهل الشعب الفلسطيني فحسب، بل إن الحملة الغربية الجديدة توزّعت على منطقتنا العربية، فجعلت في كل قطرٍ نكبة، وفي كل أُمّة جديدة مُغايرة نكسة، وانشغل كلُّ أصحاب نكبة بنكبتهم، ونكسة بنكستهم.. وها هم يفتتّون ما تم تقسيمه ويذهبون بنا إلى العدمية! ولهذا فإنني أرى أن تأبيد الكلام عن مفهوم النكبة أو الاقتلاع أو الاحتلال هو تأبيد الاتهام لعقلية الغطرسة والعنجهية والعنصرية.

إن نكبتنا ونكستنا جميعًا ليست بضياع الأرض فقط، وإنما بالتأخر والتخلف والتصحر والتوترات العرقية والإثنية والمذهبية والفجوات بين النخب والجماهير وتراجع العلم والمعرفة والنشر، وتواري الخطاب الثقافي الفوقي إلى مناطق الظل والمُعتم والذاتي والأيروتيك والهمس، وإلى العُري والتغريب والعدمية.

إن تعميم مفهوم النكبة أو النكسة وتأبيده وتحويله إلى ندبة أخلاقية في جبين العالم لا يعني أبدًا الدموع أو التذكر أو التعلّق برموز النوستالجيا المرضيّة، بل مواجهة الهزيمة وأسبابها

ومقوماتها ودراستها، والتخلّي عن أدوار الفرسان والحالمين. وكأني لا أتحدث هنا عن واقعية المهزومين أو منطقهم الطيّع المرن! بل أتحدث عن واقعية القراءة والتحليل، وواقعية الحلول المؤسَسة على إرادة صادقة بتجاوز الهزيمة ومسبباتها وشروطها. الواقعية ليست عيبًا إلا إذا كانت ذريعة لجعلنا ضحايا سلبيين، أو إذا كان منشؤها قلب جبان أو فكر متعاون.

إن تعميم مفهوم النكبة بكل مستوياتها على العالم، وجعله مفهومًا يخجل منه أولئك الذين يريدون تعليمنا الديموقراطية والحِنْدر وحقوق الإنسان، ويربك أولئك المؤمنين بنظريات الأعراق وسباق الديانات وصراع الحضارات، يعني أن نقوم جميعًا بتحويل ذكرياتنا إلى أفعال حقيقية، وتحويل دموعنا إلى خطط، وقلب مفاهيمنا الثقافية من مجرد المشابهة والتقليد، لنيل الرضا، إلى أهداف تنبع من واقعنا لتخدم واقعنا.

المهزوم أو المنكوس يقلّد فلا يجيد ولا يصيب ولا يصل، والمنكوب المهزوم يفقد أهدافه، ولا يحترم حتى ذكرياته ولا يقدّسها. ولكننا في فلسطين، ذلك الشعب الصامد المرابط، لا يعيش ذكرياته فقط، وإنما عليه أن يواصل صنع تاريخه حتى يتجلّى كاملًا على أرضه، أي أن يعيش تاريخه ويكتبه في آن واحد.

إن الخطاب الثقافي –مهما تعددت أشكاله ومضامينه– لا يعني شيئًا دون الجهد والعمل، لأنّ الثقافة، في تعريفها الأخير، هي العمل والتفاعل، بهدف تكريس الثوابت وحراسة الأحلام والتطلعات الكبرى والقيم المطلقة، وتأصيل مدارك الأجيال الطالعة بكل ذلك، عبر المؤسستين الرسمية والأهلية، وما يُنتج الفرد والمجتمع من خطابٍ وأفكار ومعارف.

وإن خطابًا ثقافيًّا اختار أن يقف على الرصيف، فإنه بالتأكيد لن يستطيع إدراك الماضي وتحديد المخاطر والانتصار عليها، لأنه ببساطة توقّف عن العقل والعمل. وخطابنا الثقافي العربي والإسلامي –مع استثناءات قليلة– يشبه حالتنا المنكوبة، ولا يختلف عن واقع نكستنا كثيرًا. بمعنى أن فعل الغرب الاستعماري، الهادف إلى بقائنا في حالة ضياع وتشظية وعدمية وجهل واستلاب وتغريب وصِدام، قد نجح إلى حدّ كبير، ليس لأنه استراتيجي ومتواصل وشمولي ومدعوم فحسب، بل لأننا لم نخلق النظرية القادرة على خلق فعل أكبر لاستيعاب ومواجهة تلك الاستراتيجية، وأعني على الأقل، خلق فعل ثقافي فكري يكون قادرًا على تعرية المؤامرة ومكوناتها وأطرافها، وتأصيل وإنهاض

عوامل البقاء والوحدة والهوية والانتماء والحضور، على أرض التعددية الطبيعية التي تُثري، وعلى مبدأ التجريب والحداثة المتّصلة بالأصل والجذر، ومن منظور النقد باعتباره حالة دائمة وهدفًا تصحيحيًا، بعيدًا عن الإعدام أو الاتهام أو الوقوع في مقولات الاستشراق، أو تبني الأفكار الجاهزة أو المعدّة سلفًا.

غير أننا نرى أن حالة الوعي العام المخزون في شوارع محيطنا العربي، والآتية من ثورة الاتصالات والمعرفة والقمع والاحتلالات والنهب، قد ارتفع منسوبها، وصرنا نلاحظ بعض الإشارات التي توحي بأن شعوب أمّتنا باتت تدرك المعادلة جيدًا، وبأن نتوءات انفجارها تنبئ بأن حدثًا هائلًا سيشهده الشارع العربي، ولو بعد حين.